مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق



الوهراني ورقعته

عن مساجد دمشق

محمد بن محرز بن محمد الوهراني
(المتوفى سنة ٥٧٥ هـ)

تحقيق
الدكتور صلاح الدين المنجد

دمشق
١٣٨٤ هـ = ١٩٦٥ م

مَطبُوعَاتُ المجمَع العِلميّ العَربيّ بِدمَشق



الوهراني ورقعته

عَن مساجد دمَشق

محمّد بن محرز بن محمّد الوهراني
(المتوفى سنة ٥٧٥ هـ)

تحقيق
الدكتور صلاح الدّين المنجد

دمشق

١٣٨٤ هـ = ١٩٦٥ م

تمهيد

- ١ -

كان عصر نور الدين محمود بن زنكي (المتوفى سنة ٥٦٩ هـ) بداية العصر الذهبيّ الثاني في تاريخ دمشق . فبعد عصر الأمويّين (٤٠ – ١٣٢ هـ) ، لم تشهد هاذه المدينة حقبة أكثر ازدهاراً . ورخاءً ، وأشدّ قوّة ، وأحفل بالأمور الجِسام والحوادث الكبار ، من عهد نور الدين والأيوبيين (٥٤٩ هـ – ٦٤٨) [١] .

في هاذا العصر الذهبيّ الثاني كانت دمشق قبلة الأنظار تهوي اليها أفئدة الناس من كل حدب وصوب ، من المدن القريبة ، والبلدان القاصية . [٢] وقد استهوت ألباب المغاربة والأندلسيّين خاصة فسارعوا اليها ، وقالوا : « إنْ كانت الجنّة في الأرض فدمشق لا شكّ فيها ، وإن كانت في السماء فهي بحيث تسامتُها وتحاذيها » ، [٣] بل أوصوا بقصدها

---

(١) عن هاذه الحقبة انظر كتابنا « دمشق في القرن السادس الهجري » والمصادر المذكورة فيه .

(٢) انظر مثلاً مقالتنا « دار الحديث العروية بدمشق » ، في مجلة المجمع العلمي العربي ، المجلد ٢٩ ، الجزء الثاني ؛ وجزء من الفوائد المنتقاة عن أبي العباس محمد بن يعقوب الأصم (مخطوط في الظاهرية ، مجموع ٢٨ ، الرسالة الخامسة ، ورقة ٥٦ آ) .

(٣) القول لابن جبير ، الرحلة ص ٢٣٥ (طبعة صادر ، بيروت ١٩٥٩) .

والسكنى فيها[١]. فزارها بعضهم زورة قصيرة تبرّكاً بها وبمشاهدها ، أو أخذاً للعلم عن علمائها . وحلا العيش فيها لآخرين منهم وطاب ، لما وجدوه من إنعام ، وإكرام ، وترحاب ، فأقاموا بها ، واتخذوها وطنا . [٢]

فمِن هؤلاء المغاربة الذين رحلوا الى دمشق وأقاموا فيها محمد بن محرز بن محمد الوهرانيّ [٣] . كان أديباً صناعته الإنشاء . أقدمُ مَنْ ترجم له هو القاضي ابن خلّكان قال عنه إنه « أحد الفضلاء الظرفاء ، قدم من بلاده الى الديار المصرية في أيام السلطان صلاح الدين — وفنّه الذي يمتّ به صناعة الإنشاء . فلما دخل البلادَ ورأى بها القاضي الفاضل وعماد الدين الاصبهاني الكاتب وتلك الحلبة علم من نفسه أنه ليس من طبقتهم ، ولا تنفق سلعته مع وجودهم ، فعدل عن طريق الجد ، وسلك طريق الهزل ... » [٤] .

فيُفهم من قوله أنّ الوهراني عدل عن طريق الجد بعد أن لقي العماد والفاضل عند صلاح الدين بمصر .

وهاذا الكلام يحتاج الى تصحيح . فسلوك الوهراني طريق الهزل كان قبل أن يصبح صلاح الدين سلطاناً . لأنه كتب كثيراً منْ مقاماته الهزلية ورسائله في أيّام نور الدين بدمشق كما سنرى . ولم يجتمع العماد والفاضل بمصر إلا بعد موت نور الدين .

---

(١) ابن جبير يقول : « فمن شاء الفلاح من نشاة مغربنا فليرحل إلى هاذه البلاد » الرحلة ، ص ٢٥٨ .

(٢) لزيادة التفصيل انظر كتابنا « دمشق في نظر المغاربة والاندلسيين » .

(٣) وهران بلدة معروفة في المغرب الأوسط (الجزائر اليوم) .

(٤) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ٤ : ١٩ (طبعة محيي الدين عبد الحميد) ؛ وقد تابع ابن خلكان على ما قال كل من ترجم بعده للوهراني .

ثم إن مجيئه من بلاده الى الشرق لم يكن في أيام صلاح الدين ، بل كان أيام نور الدين . وقد وصفه في إحدى رسائله عندما سئل عنه وهو في بغداد ، فقال عنه « سهم للدولة سديد ، وركنٌ للخلافة شديد ، وأمير زاهد ، وملك مجاهد ، تُساعده الأفلاك وتخدمه الجيوش والأملاك . »(١)

وعجيب أن يخطيء ابن خلّكان مثل هاذا الخطأ ، والأمر واضح ، على تتبعه وشدّة تحرّيه . وقد تبعه فيه الصفدي في « الوافي »(٢) فقال : « قدم من المغرب الى مصر وهو يدّعي الانشاء فرأى الفاضل والعماد . . »

والذي عرفناه عن سيرته ، بعد مطالعة آثاره المخطوطة ، خاصةً أنه زار دمشق في أيام نور الدين واتصل به(٣) . وأنه مرّ بصقلية ، وزار بغداد . ثم اتخذ دمشق داراً واستوطنها . وكان نور الدين شديد العطف على المغاربة ، فوُجِّهت اليه خطابة مسجد داريّا . فبقي فيها . وقد زار مصر . ونرجّح أنه زارها بعد وفاة نور الدين . وعاد الى دمشق ، وبقي في داريّا حتى توفي سنة ٥٧٥ هـ ، أيام صلاح الدين . ودُفن على باب تربة أبي سليمان الداراني(٤) . وله رسالتان كتبها الى صلاح الدين « يتوقّع نظرة من سعوده ، أو درّة من نجار وعوده »(٥) .

---

(١) الوهراني ، جليس كل ظريف (مخطوطة جامعة برنستن ، ورقة ٤ آ) ؛ وأبو شامة الروضتين ٢/٥٨٤ (ط حلمي) .

(٢) الصفدي ، الوافي بالوفيات ٤ : ٣٨٦ (تحقيق ديدرنغ) ؛ وانظر أيضاً مثل هذا القول عند الزركلي في الأعلام ٧/٢٤١ ، وكحالة في معجم المؤلفين ١١/١٧٤ .

(٣) يذكر الوهراني في « منامه » الكبير حادثة وقعت في دمشق لأحد من يذكرهم ، في دار الفوّارة بجيرون ، في شهور سنة ٥٥٣ هـ .

(٤) ابن خلّكان ، المصدر السابق . وعن داريا وأبي سليمان ارجع الى تاريخ داريا للخولاني .

(٥) جليس كل ظريف ، ورقة ٢٢ آ — ب .

استطاع الوهراني أن يجذب القلوب اليه . فقد كان « ظريفاً خفيف الروح » ، وكان بارعاً في الهزل والسخرية . فصبّ سخريته وتهكمه على كبار علماء دمشق وفقهائها وأطبائها وكُتّابها كالتاج الكندي ، والمهذّب ابن النقّاش ، والقاضي الفاضل ، والقاضي ضياء الدين الشهرزوري ، والقاضي ابن أبي عصرون ، وغيرهم . ولم يسلم من لسانه وقلمه علماء مصر ورجالها أيضاً ، كالخبوشاني ، وابن مماتي . فألّف رسائل هزلية مختلفة . وابتدع فن المقامات الأدبيّة . وقد شُهر « منامه » الكبير « الذي سلك فيه مسلك أبي العلاء في رسالة الغفران » (١) ، و « جمع فيه أنواعاً من المزاح والأدب » (٢) . فتخيّل أنه رأى في المنام كأن القيامة قامت . ومنادياً يُنادي : هلموا الى العرض على الله . فخرج من قبره حتى بلغ أرض المحشر . فلقي هناك كثيرين ممن عاصره وعرفه ، أو مات قبل . فسخر منهم جميعاً وذكر ما حوسبوا عليه .

وقد جمع في كتابه « جليس كل ظريف » الكثير من رسائله ومناماته وفصوله الهزلية . (٣)

والذي يُطالع آثار الوهراني هاذه تبدو له براعته في التهكم والتصوير الهزليّ . كان لا يتورع عن السخرية بنفسه . متخيّلاً ما يقوله أعداؤه عنه . وصف القاضي الفاضل فقال : « فلم أشعر إلاّ والحائط قد انشقّ ، وخرج منه شخصٌ عجيب الصورة ، ليس له رأس ولا رقبه ، وإنما وجهه في صدره ، ولحيته في بطنه » (٤) ووصف مجلساً ضمّ القاضي الشهرزوري ،

---

(١) الصفدي ، المصدر السابق ، ص ٣٨٧ وقال : « لكنه ألطف مقصداً وأعذب عبارة » .

(٢) الذهبي ، العبر في خبر من غبر (بالغين المعجمة) ٢٢٦/٤ (تحقيقنا) .

(٣) وفي دار الكتب المصرية مجموعة من رسائله أيضاً . انظر فهرس دار الكتب ١٦٢/٣ ؛ وبروكلمن ، الذيل الأول ص ٤٨٩ .

(٤) من رسالته إلى مجد الدين ابن المطّلب . وتصوير الوهراني هذا أبرع من هجاء ابن عنين للقاضي الفاضل وسخريته بحدبته .

وابن النقّاش ، وابن العميد ، جرى فيه حديث المغاربة الذين يأتون من الغرب الى الشام ، ومنهم هو نفسه فقال :

« فيقول ابن العميد : ضيّعتم الوقت في حديث الوهراني ، والله إن مُلْكَ المغرب نحس . ما جاءنا قطّ منهم إلاّ حارس كرم ، أو ناطور بستان [مع] الركوة والتاسومة ، وهاذا الوهراني من بينهم ، شهد الله ، أثقل على القلوب من الغدّة الخارجة في الحلق ، وأوحش من الورم النافر في الأوداج . فيندفعُ حينئذٍ ابن النقّاش بفلسفته فيقول : اللهم العن الوهراني من الجهات الستّ ، اللهم العن ما يُقابل الوهراني من الأوج الى الحضيض . اللهم العن الهيولىٰ التي شاركت العناصر في تكوينه . والله ما أعرف في مقعر فلك القمر ، ولا على مُحدودَب هاذه الكرة الترابيّة شرًّا من ذلك الخبيث . . . .

« فيقول أبو المعالي ابن العميد بفصاحته : بالله عليكم اقصروا واقتصروا . . . ما للوهراني عرض يُثلم ، ولا مجد يُهدَم . وهو دون كل ما ترموه (كذا) به ، وإن اشغالكم الوقت بحديثه يُضيع الزمان ، فإنه لا يصلح إلاّ لحمل المِشْعَل ، أو لنظارة القنّبيط . والمصيبةُ أنه مع هاذا يَتَمَكْتَب ويتمَشْعَر ، ويعمل أشياء تشبه جوف لحيته . . .

« ثم يشرع يجلو محاسن نفسه ، ويُظهر فضيلته التي تقدّم بها على الأقران فيقول : يا غلام ! اغسل حلوقَ القوم من ذكر الوهراني بشيء من الكمثرى : العَيْلاني ، والسُكَّري ، والعُثْماني ، والسمرقندي ، والخلاّني ، والعزّي ، والبيطاري ، والدينَوَري ، والبردي ، والديجوري ، والخنافسي ، والحدوني ، والصقلابي ، والمعنّق ، والملكي ، والذهبي ، والرحْبي ، وشيء من التفّاح : البطيحي ، والبدىدى (كذا) ، والبربري ، والنبطي ، والصيفي ، والخشخاشي ، والفضّي ، والحلواني ، والجنّابي ،

والقحابي ، والهامي ، والفتحي ، والحديثي ، والقبتلنيامي ، واللبناني . . . [١]

« .. ثم يقعوا (كذا) في هاذا الوادي من الحديث ، فيشتغلوا (كذا) عن ذكر وهران » .

« هاذا إن صدق ظنّ الخادم وتخيّله ، فالأمر يجري على هاذه الصورة »[٢].

وكتب الى رجل اسمه قسيم الأعور رسالة ، كلها سخرية ، خاطبه فيها بقوله:

« يا مولاي الشيخ الزاهد ! دبّوس الإسلام ، لتّ الشريعة ، قنطارية العلماء ، باقوروت (كذا) الائمة ، طبل باز السنّة ، نصر الله خاطرك ...! »[٣]

ووصف بعض ألفاظ قصيدة قالها التاج الكند ، في رسالة كتبها اليه ، فقال :

« ... ألا ترى أنها لا ينطق بها اللسان حتى ينخلع منها الفكّ ، مع ما فيها من التدقضرم (كذا) ، والرقاعة المعجونة بالتبظرم ، ولأجل ذلك جاوبتها الألسن بأنواع من الضـ ... [٤] .

وهاكذا نرى من النصوص التي سقناها أن الوهراني كان « صاحب دعابة ومزاح » على حد قول الذهبيّ ، وأنه « ما سلم من شرّ لسانه أحد

---

(١) هذا التعداد لأصناف التفاح والكمثرى ذو شأن كبير لمعرفة ما كان يوجد منها في دمشق أيام الأيوبيين . وما زال بعض هذه الأصناف موجوداً حتى يومنا . وقد تعمدنا نقل النص لمعرفتها وفي معجم الألفاظ الزراعية أن شجر الكمثرى اسمه Poirier بالفرنسية وهو الصحيح . وهـذا مدلول الكمثرى في مصر أما في الشام فيسمونه إجاصاً على حين أن الإجاص في اللغة هو الـ Prunier بالفرنسية والبرقوق في مصر .

(٢) جليس كل ظريف ، ورقة ٣٣ آ ـ ٣٥ ب ، من رسالته إلى الأمير شمس الدين ابن الوزير البعلبكي .

(٣) جليس كل أنيس ، ورقة ٣٧ ب ، والأسماء المذكورة كلها أسماء لضروب السلاح .

(٤) المصدر السابق ، ورقة ١٧ ب .

ممن عاصره » ، على قول الصفدي . وأنه كان كاتباً في الهزل والسخرية والتهكم ، مقبول الكلام خفيف الروح ، على ما عنده من لذع وحدّة . وهو ثاني اثنين سلّطهما الله على أهل دمشق ايام الأيوبيين : ابن عُنَيْن في « مقراض الأعراض » شعراً ، وهو في « رسائله » و « منامه » نثراً .

ونعتقد أن السبب الذي دعاه الى اتباع هاذا الطريق هو طلب المال . فقد كان يسعى إلى جمعه . يحدثنا هو عن نفسه فيقول :

لما تعذّرَت مآربي ، واضطربت مغاربي ، ألقيتُ حَبْلي على غاربي ، وجعلتُ مذهبات الشعر بضاعتي ... فما مررتُ بأمير إلاّ حللتُ ساحته ، واستمطرتُ راحته ، ولا بوزير الاّ قرعتُ بابه وطلبتُ ثوابه ، ولا بقاضٍ إلا أخذت سيْبه ، وأفرغتُ جَيْبَه ... » [1] .

فهو يستمطر راحة الأمراء ، ويطلب ثواب الوزراء ، ويُفرغ جيوب القضاة .

ولم يغمز الوهراني نور الدين إلاّ لأنه كان لا يُعطي الأدباء والشعراء الأموال . فقد قال عنه : « عُرف بالمَحْلِ الجديب للشاعر الأديب . فما يُرْزِىَ ولا يُعَزّى ، ولا لشاعر عنده من نعمة تُجزَى » [2] .

وكيف كان أمر الوهراني فيما ابتغاه من سخريته ، فإنه يكاد يكون نسيج وحده في أدبنا العربي ، فيما كتب . وهو جدير بدراسات واسعة تُكتب عنه . وآثاره المخطوطة ينبغي أن تنشر .

---

(١) جليس كل ظريف ، ورقة ١ ب .

(٢) انظر الروضتين ٥٨٤/٢ (نشرة محمد حلمي) وقد أخطأ المحقق في ضبط اسم الوهراني ، فجعله يحيى بن محمد !

— ٢ —

أما الرقعة التي ننشرها ، والتي مهدنا لها بما ذكرناه ، فهي من مضمونات كتابه « جليس كل ظريف » . وهو كتاب نادر حلو وجدناه في مجموعة يهودا المخطوطة ، بجامعة برنستن بالولايات المتحدة الأميركية ، وهو محفوظ فيها (برقم 665 .ah /١) . ولم يعرف بروكلمن هذه المخطوطة .

وقد رأينا نشر هذه الرقعة لأنها من النصوص المتعلّقة بتاريخ مدينتنا دمشق ، وخاصةً بتاريخ مساجدها . وخلاصتها أن مساجد دمشق والضياع التي من حولها أصابها في زمن نور الدين الخراب والضّياع . فاجتمعت هاذه المساجد ، ولجأت الى أميرها وسيدها جامع بني أمية . وكتب لها جامع النيرب قصة قدّموها اليه . ذكر فيها ما تلقاه المساجد من جور العمال ، ونهب الوقوف ، وخراب الحيطان والسقوف . ثم تكلّم جامع المزّة ، ثم مشهد برزة . فلما استمع مسجد دمشق الى الكلام أشار أن يكتبوا شكواهم الى قاضي القضاة أبي سعد بن عصرون . فقرأها وكتب على ظهرها هجاءً لمسجد دمشق . فغضب المسجد ، ورفع شكواهم مع شكواه الى الملك الزاهد نور الدين . فلما وقف نور الدين على ماكتبوا اهتمّ فأصلح أحوال المساجد . وعزل ابن عصرون .

هاذه خلاصة الرقعة . ومن الممكن أن يكون الوهراني قد كتبها لعلمه بحالة المساجد يومئذ ، وقد كان - كما مرّ بك - خطيباً في مسجد داريّا . ولعله كتبها ودسّها الى نور الدين نفسه ، فكانت بعدها عنايته بإصلاح المساجد وتطييبها مما ذكر أخباره أبو شامة وابن كثير وابن واصل ، وسبط ابن الجوزي ، وابن قاضي شهبة ، وغيرهم فقد تقدّم بإحصاء ما في محال دمشق من المساجد الخراب فأناف على مئة مسجد ، فأمر بعمارة

ذلك كله . وعيّن له وقوفاً . (١) ورأى جامع دمشق داثراً فأتى بالقاضي كمال الدين محمد بن عبد الله الشهرزوريّ الموصليّ فولاّه قضاء قضاة دمشق ، وولاّه نظر الجامع فأصلح أموره . وكذلك وقف نور الدين عليه أوقافاً لتطييبه . وذكر العماد الاصبهاني أنه عمر في سنة ٥٦٥ ﻫ جامع داريّا ، ومشهد أبي سليمان الداراني (٢) ، الى غير ذلك ، مما يدلّ على سوء حالة المساجد وصدق ما في الرقعة .

وتشير الرقعة أيضاً الى أن نور الدين عزل ابن عصرون بسبب إهماله المساجد . وابن عصرون هاذا هو شرف الدين أبو سعد عبد الله بن محمد ابن أبي عصرون الموصلي المتوفى سنة ٥٨٥ ﻫ . قدم الى دمشق لما فتحها نور الدين سنة ٥٤٩ ﻫ فدرّس بالغزالية وولي أوقاف المساجد ثم سافر الى حلب ، ثم عاد الى دمشق بعد وفاة نور الدين ، سنة ٥٧٥ ﻫ . وهو الذي تنسب اليه المدرستان العصرونيتان بدمشق وحلب . (٣)

ولم يذكر ابن خلّكان ، ولا ابن كثير ، ولا ابن العماد صاحب الشذرات ، سبب تركه نظر أوقاف المساجد ، وهذه الرقعة تفيدنا في معرفة السبب .

وها هوذا نصّ الرقعة :

---

(١) ابن واصل ، مفرّج الكروب ١/٢٨١ : ابو شامة ، الروضتين ١/١١ ؛ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ٨/٣١٢ ؛ البدر ابن قاضي شهبة الكواكب الدرّية (مخطوط) .

(٢) ابن كثير ، البداية ١٢/٢٦١ ؛ النعيمي ، الدارس ٢/٤٣٢ . الأول نقلاً عن العماد ، والثاني نقلاً عن البدر ابن قاضي شهبة .

(٣) ابن خلّكان ، وفيات ٢/٢٥٦ (ط . محيي الدين عبد الحميد) ؛ وانظر الدارس ١/٣٩٨ .

نسخة الرقعة التي رفعها المساجد

الى جامع دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

لمّا تحكّمت يدُ الضّياع في مساجد الضّياع ، وأرتج بابُ العدلِ وأُغلق ، ونُبذَ كتابُ الله وخَلَق ، فزعت المساجدُ إلى جامع جِلّق ، وهو يومئذ أميرُها ، عليه مدارُ أمورها . فلما وصلوا إلى بابه ، واجتمعوا تحت قبّته ومحرابه ، كتب لهم جامعُ النّيْرَب قِصّةً اليه ، وتوصّلوا إلى مَنْ عَرَضها عليه . فكانت الرقعةُ مسطورةً على هاذه الصورة [1] .

«المماليكُ مساجدُ الكورة يُقَبّلون الأرضَ بين يديْ الملكِ المعظم ، البديعِ الرفيعِ المكرّم ، كهفِ الدين ، جمال الاسلامِ والمسلمين ، بيتِ الأتقياء والصالحين ، مدفنِ الأنبياء والمرسلين ، مَعْبَدِ المِلّتَيْن ، صاحبِ الدولتيْن ، بُنْيَةِ أمير المؤمنين ، أعلا الله منارَه ، وأيّد أنصارَه ، وعَمَرَ بالتوحيد أقطاره .

---

(١) انظر جليس كل ظريف ، ورقة ٥ ب – ٧ ب .

« وَيُنْهون اليه ما يُقاسونه من جَوْرِ العُمّال ، وتضييعِ الأعمالِ ، ونَهْبِ الوقوفِ ، وخرابِ الحيطان والسقوف .

قد ألِفَهم الظُـلْمُ والظلام ، وأنكرهم المؤذّن والإمام ، فلا يُسمعُ فيهم إلاّ أذانُ البوم ، وتسبيح الغيوم . قد ركعتْ أركانُها ، وسجدتْ سقوفُها وحيطانُها ، تبكي عليها النواقِس ، وترثي لها البِيَعُ والكنائس .

« يا وَيْح مَنْ يرثي له الشامتُ »

وقد فزَعْنا ، أيّها الملك ، إلى بابك ، وأوَيْنا تحت جنَابك ، فافعلْ بنا ما هو أولىٰ بك .

والسلام . »

فلما وقف على هـــذه الحكاية ، وفهم مُقتضىٰ الكناية ، استوى جالساً في مقعده ، وضرب بيده على يده ، وقال : كيف وأنّىٰ ، أمْ للإنسان ما تمنّى ، ثم رفع رأسه وغنّى :

« وما شَرِبَ العُشّاقُ إلاّ بقيّتي
ولا وردوا في الحب إلاّ على وِرْدي »

ثم أشرف على إيوانه ، بين حفَدَته وأعوانه ، وأقْبَلَ يُقَلِّبُ

طَرْفه في الجموع ، ويكفكف انسراب الدموع ، لِما يرى من اختلالهم ، وفسادِ أحوالهم .

فابتدر جامع المزّة للمقال ، فتقدّم بين يديْ الملك وقال :

« الحمد لله الذي قضى علينا بالخراب ، وصيّر أموالنا كالسراب ، وجعلنا مأوىً للبوم والغُراب .

« أحْمَدُه حَمْد مَنْ كان فقيراً ثم استغْنىٰ ، وأدرك بمالِ الوقْفِ ما تمنّىٰ . وأشهدُ أنْ لا إله إلاّ الله ، وَحدَه لا شريكَ له ، شهادةَ عالمٍ عاملٍ ، متحمّلٍ لثقلِ الأمانة حامل ، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسوُله ، الصادقُ الأمين . صلّى الله عليه وعلى آله الطاهرين ، الطيّبين الأكرمين .

« أما بعدُ أيُّها الملكُ السعيد ، ثبّت اللهُ قواعد أركانك ، وشيّد ما وَهىٰ من بنيانك ، فإنّ الخراب قد استولى على المساجد ، حتى خَلَتْ من الراكع والساجد ، وأصبحت جوامع الغوطة غيطان ، لا سقوفَ لها ولا حيطان . ومشاهدُ البقاع[1] ، صَفْصَفاً كالقاع ، ومساجدُ حوران مخازن وأفران ، فكم بُنيــة لعب

(١) يشير الى البقاع العزيزي ، في لبنان اليوم .

الجوْرُ بأربابها ، ونَسجَ العنكبوتُ على بابها ، وكم بيوت لله غلّقت دون أصحابها ، فَعَشْعَشَ الحمامُ في محرابها . ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمّن مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أنْ يُذْكَرَ فيها اسْمُه وسَعىٰ في خَرَابِها ﴾[1] . وقد دُخِلَ أيّها الملك على الوقوف ، بحجّة العمارة والسقوف . فاتفقَتْ علينا الأهواء ، واختلفتْ فينا الامطارُ والأنواء ، فلا يزال المسجدُ يَنْهار ، وتأخذُه السيولُ والأنهار ، حتىٰ يُمحىٰ رسمُه ، ولا يبقىٰ منه الاّ اسمُه . وأنتَ ، أيُّها الملكُ ، عمادُنا ، واليك بعد الله معادُنا ، فالتَفِتْ الى حالنا ، وآنظرْ في صلاح مآلنا ، يُصْلِح اللهُ أحوالك ، ويُسدّد في الخير أقوالك وأفعالك . والسلام » .

ثم جلس .

فقال الملك : هاؤلاء المساجد ، فما بالُ المشاهد ؟

فبرزَ مشهدُ بَرْزَةَ متوكِّئاً على مسجد الأرْزَة ، وهو يُصلصلُ ويصول ، ويلطمُ وجهه ويقول :

(١) سورة البقرة ، ٢ ، الآية ١١٤ .

« كلّما حاولتُ أشكو قصّتي
لا أُلاقي غَيْرَ ذي قلبٍ جريح
يتشكّى مثلَ شكوايَ له
يا لقومي ما عليها مستريح ! »

« أمّا بعدُ ، أيها الملك السعيد ، أدام الله جمالَك ، وبلّغك في العدوّ آمالك ، فإنّ مقام ابراهيم أصبح في كلّ وادٍ يهيم ، ومغارةَ الدمّ ، لا تستفيقُ من الذمّ ، ومسجدَ الكهف ، لا يَفْتر من اللهف ، وقبرَ شيث ، قد استأصله الخبيث . وقبرَ نوحٍ ، يبكي وينوح ، وقبر جيلة مالنا فيه حيلة ، وقبر الياس تعوّضنا عنه بالياس . وأمْسَتِ المشاهدُ كأربابها ، وأصبحت رسماً كأصحابها . قد محتْها العوادي ، وحدا بها الحادي :

« جَرَتِ الرياحُ على رسومِ ديارهمْ
فكأنّما كانوا على ميعادِ »

فقال الملكُ : رُبَّ طارقٍ على غير وعد ، وفي كلّ وادٍ بنو سعد .

ثم تنحنح عجبا ، وحرّك رأسه طَرَبا ، واستفتح المقال بأن قال :

« الحمدُ لله الذي لا يحمدُ على المكروه سواه . نَصَبَ العدلَ وسوّاه ، وأمَدّه بعونه وقوّاه . فمَنْ أضلّ ممّن اتّبع هواه ﴿ وأضلّه اللهُ عَلىٰ عِلْم ، وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وقَلْبِهِ ، وَجعَلَ على بَصَرِهِ غِشاوة ، فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ الله ﴾[1] .

« أحمدُه على ما رزقني من الاحتمال ، وأشكرُه على ذهابِ العِرْضِ والجاه والمال . وأشهدُ أنْ لا إله إلا الله ، وحدَه لا شريك له ، شهادةَ مَنْ أعطى الأمانةَ حقَّها ومُسْتَحقَّها ، وأنَّ محمداً سيّدُ الأوّلين والآخرين رسولُ الله .

«أما بعد ، يا معشرَ المتكلّمين ، وطائفةَ المساجد المتظلّمين ، فإنه والله ما يصلُ اليكم من الجوْر إلاّ ما يفضُل عني ، ولا ينتهي اليكم إلا ما يُستعار مني . ولولا أنّ أركاني سليمة ، وبُنْيتي قديمة ، لأصبح جامع بني أميّة ، يغنّي : يا دار مَيّة .

« وقد والله شرِقتُ بغصّتكم ، وحِرْتُ في قصّتكم ، إنْ رفَعْتُ أمركم إلى الملكِ العادل[2] ، ردّكم إلى الشيخ العالم

---

(١) اقتباس من سورة الجاثية ، ٤٥ ، الآية ٢٣ .

(٢) يعني نور الدين .

العامل[1] ، فلا يرعى لكم حرمة ، ولا يراقب فيكم إلاًّ ولا ذِمّة ،

« شَكوى الجريحِ إلى الغِرْبان والرّخمِ »

والرأيُ عندي أن تكتبوا للشيخ قصة ، ولا تتركوا في صدوركم غصّة ، وأن تجعلوا في الكتاب أنواعاً من العِتاب ، فإن التأم رأيه برأيكم ، وإلاّ فالسلطان من ورائكم .

« أقولُ قولي هاذا ، وأستغفر الله العظيم لي ولكم . »

فنادوا بالغلام ، فأتى بالدواة والأقلام ، فقال : اسْتَعِذْ بالله من الشيطان الرجيم ، واكتب : بسم الله الرحمن الرحيم .

« من ملك الجوامع بجيْرون الى أبي سعد بن عُصْرون[2]

« لقــــد أسمعْتَ لو نادَيتَ حيًّا

ولاكنْ لا حياةَ لمن تُنادي »

« أما بعدُ يا غدّار ، فقد هيّجتَ الألم ، وأبهمتَ الظُلَم ، ومن استرعى الذيب فقد ظلَم . طالما تغاضَيْنا عن خياناتك ، حتى اكتنَزْتَ الأموالَ وادّخرْتَها ، وجمَعْتَ الذخاير واعتزلتَها .

---

(١) يعنى ابن أبي عصرون .

(٢) كذا مشكولة في الأصل بضم العين .

أَمِنْ أَجْلِ هاذا كانتْ سياحتُك ، وبسببه كانت نياحتُك ؟ ولأجله كنتَ تسيح وتصيح ؟ حتى غَبَطَك المسيح . لقد عجبتُ أيُّها الشيخُ من مُحَالِك ، في ابتداء حالِك ، ومن فسادِ أمْرِكَ عند آخرِ عُمْرِكَ ، صَلَّيْتَ بالمسوح والقَيْد ، حتى ظفرتَ بأنواع الصَيْد ، وتقلَّدتَ بالقرون والعِظام حتى تقلّدت الذبوب(١) العِظام . إنْ كنتَ في هاذا العمل ، إلاّ كما قيل في المَثَل :

«صَلّى وَصامَ لأَمْرٍ كان يأمُلُهُ
حتى حواه ، فما صَلّى ولا صاما »

« فعَرِّفْني ، أيّها الشيخُ المفتون ، والبايع المغبون ، لِمَ بِعْتَ الباقية بالفانية ، والقاصية بالدانيه ؟

إنْ فعلتَ ذلك إلاّ لعلّة ، أو لتحقيق ملّة ، إمّا أن تكون استطَبْتَ السكباج ، واستَلَنْتَ الديباج ، وإما أن نصدّق أهلَ الأَحقاد ، في أنّكَ نُصَيْرِيٌّ في الاعتقاد . لا تقولُ بالنجعة ، ولا تصَدِّقُ بالرجعة . وكِلاهما أنتَ فيه مَلُوم ، ومُعاقَبٌ

(١) في هامش الأصل : خ « الأمور » .

وَمذْموم . وحسبُك قد بلغني ما أنتَ عليه من قِلـة الوفا ، مع هاؤلاء الضُعَفا . فاَحسمْ عنهم أذاهم ، ولا تُمَكِّنْ منهم أعداهم . والسلام » .

فلمّا وَصلت الرقعةُ اليه ، وقرأ ما قد انطـوَتْ عليه ، ﴿ فكّرَ وقدّرْ ، فقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرْ ، ثم قُتِلَ كَيْفَ قَـدَّرْ . ثُمَّ نَظَر ، ثُمَّ عَبَس وبَسَر ، ثُمّ أَدْبَرَ واسْتَكْبَر ﴾ [1] وشتم المساجدَ وبانيها ، ولَعَن المشاهد وقانيها ، وَقلَبَ الرقعةَ وكَتَبَ فيها :

وَصلَتْ رقعتُـك ، أصلحك الله ، كأنّها ضربةُ مَوْتور ، أو نفثةُ مصدور ، تَخلطُ فيها الهزْلَ بالجدّ ، وتُبْدي غيْظَ الاسير على القِدّ . وأيْم الله ، لقد فَرَقْت بَرِيّا وقذفْتَ سَرِيّا ، وجئت شيئاً فَرِيّا . فاشْدُد من عِقالك ، وتأيّد في مَقالِك ، فما كُـلُّ شخص يُذَمُّ شكلُه ، ولا كُـلُّ طائرٍ يجوزُ أكلُه ، وما كُـلُّ بيضةٍ شحمة ، ولا كلّ سوداء فحمة . ولو كان الكَ عَقْلٌ يهديك ، لواريْتَ أُوارَك ، ولستَرْتَ عُوارَك . أليس قد اشتهر عند الداني والقاصي ، بأنك قطبُ المعاصي ؟ حتى لقّبوك : بسوق الفسوق ، وميدان المردان ، ورِحاب القِحاب ، وحتى قال فيك الشاعر :

---

(١) اقتباس من سورة المدثر ، ٧٥ ، الآيات ١٨ — ٢٢ .

« تجنّبْ دمشقَ ولا تأتِها
وإنْ راقكَ الجامعُ الجامعُ
فسُوقُ الفسوقِ به قائم
وفَجْرُ الفجورِ به طالِـــعُ »

لا جَرَم أنّ الله قطعَك بالطريق ، وعاقبك بالحريق ، وعذّبك بالنيران ، وقرَنكَ بِشَرِّ الجيران ، وجعل الميَضَ على أبوابك ، والزُطّ في قبلة محرابك . وجعل خطيبك أفوهَ دايصا ، وإمامَكَ أعمى ناقصا . فلو أنّك البيتُ المعمور لهُجِرتَ ، أو بيْتُ مَكّة لما حُجِبْتَ . فتَوَقّفْ عند مقدارِك ، وانظر في ايرادِك واصدارِك . والسلام . »

فلما وقَف الجامعُ على رقعته ، ورأى ما فيها من رقاعته ، قام وقعَد ، وأبْرَقَ وأرعد ، وقال : اكتب يا غلام :

« باسم الملك العلاّم
مِنَ ٱلعاتبِ الواجد ، إلى الملك الزاهد .
قال الحائطُ للوَتِد : لِمَ تشقّني ؟
قال : سَلْ مَنْ يَدُقّني .

أمّا بعدُ ، أيُّها الملكُ العادل ، أدام الله أيامك ، ونَشَرَ في

الخافقَيْن أعلامك . فقد طاوَلْتَ بعدلِكَ القَمَرَيْن ، وسِرْتَ سيرةَ العُمَرَيْن، فإنّ الله شَرّف بُنْيَتِي وحَرّمها ، وطهّر بُقْعَتِي وكَرّمها .

طالما زوحمتُ بالمناكب لمّا كنتُ هيكلاً لِلْكواكب .

وكمْ أمسيتُ مِشكاةً للأنوار وبيْتاً لِعَبَدَةِ النار .

ثم انتقَلْتُ الى اليهود بَعْد انقِراض مِلّةِ هود ، فتأنسْتُ بالزبور ، وبالأنبياء في القبور .

ثم جاءتْ دولةُ الصلبان ، فقرّبتُ بالقربان ، ومعاشرة الرهبان.

ثم جاء الإسلامُ ، فتشرّفتُ بدين سيّدنا محمّد عليه أفضلُ الصلاةِ والسلام .

فأنا المعظّم في كل زمان ، والمقدّم في كلّ قِران .

وكيفَ يسَعُكَ ، أيّدك الله ، التغافلَ عن حالي ، والتحسين لنهب أموالي ، ويَدُكَ مبذولة في البلاد ، ومتحكمة في رقاب العباد ؟ وأيُّ شيء يكونُ جوابك يوم النشور ﴿ إذَا بُعْثِر ما في القُبُورِ ، وحُصِّلَ ما في الصُّدُور ﴾[1] وقد أوقفْتُكَ موقفَ الذليل بيْن يَدَيْ الملكِ الجليل ، وأقولُ لَكَ : أيْ ربِّ ! سَلْ هاذا لِمَ أهْمَلَني ، وسلّمني لِمَنْ أكلني ؟ فلا تردّ

---

(١) اقتباس من سورة العاديات ، ١٠٠ ، الآية ٨ ، ٩ .

جواباً ، ولا تحيرُ خطابا ، ولا آخذُ منك ضميناً ولا كفيلاً ، ولا أقبلُ عنك شفيعاً ولا وكيلاً . فتقول : ﴿ يا لَيْتَني اتَّخَذْتُ مَعَ الرّسول سَبيلا . يَاوَيْلَتَا ، لَيْتَني لَمْ أتَّخِذْ فلاناً خليلاً . لَقَدْ أضَلّني عَنِ الذّكْرِ بَعْد إذْ جَاءني ، وَكَانَ الشّيْطَان للإنسَان خَذُولا ﴾[1] .

فَقَدِّم ، أيّها الملك ، لنَفْسِكَ ما تجدْه غداً في رَمْسِك. وخُذْ هاذه التذكرة بالحساب ، قبل يوم الحِساب ، تبرأ من التباعة ، وتدخلْ في أهْلِ الشفاعة .

والسلام على مَنْ عَمَرَ مساجدَ الاسلام ، ورحمة الله وبركاته ».

فلما وقف نور الدين على كتابه ، وتجرّع أليم عتابه ، التفتَ إلى المساجد ، فرثى لهم ، وسدّد أحوالهم ، وأسرّها يوسف في نفسه ، ولم يُبْدِها لهم .

ثم نظر الى ابن عصرون فأنزله واعتزله ، وحجبه عن بابه واختزله ، وألقاه في سجن الصدود ، وخلّده فيه الى يوم الخلود ، وقرأ عليه : ﴿ ألا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَمَا بَعُدَتْ ثَمُود ﴾[2] والسلام » .

* * *

(١) اقتباس من سورة الفرقان ، ٢٥ ، الآيات ٢٦ – ٢٨ .

(٢) اقتباس من سورة هود ، ١١ ، الآية ٩٥ .

ملحق

عن الأماكن المذكورة في نصّ الرقعة

حسب ورودها

جامع جلّق : هو المسجد الأموي . أنظر عنه :
ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، المجلدة الثانية (تحقيقنا) ص ٥ وما بعدها (دمشق ١٩٥٤ م) .
المنجد ، خطط دمشق ، ص ٥٥ (بيروت ، ١٩٤٩ م) .
مجهول ، ذكر ما استقرّ عليه الجامع إلى سنة ٧٣٠ هـ . (تحقيقنا) ، دمشق ، ١٩٤٨ م .
النعيمي ، الدارس (تحقيق الأمير جعفر الحسني) ٣٧١/٢ .
بدران ، منادمة الأطلال ، ص ٣٥٧ (نشرت بدمشق سنة ١٣٧٩ هـ على نفقة الشيخ عليّ بن عبد الله آل ثاني . وهي طبعة سيئة جداً) .

جامع النيرب : النيرب قرب الربوة ، معروف . وهما نيربان . أنظر عنهما : ابن طولون : القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية . (تحقيق الأستاذ دهمان) . وجامع النيرب وُصف بأنه كان حسناً تُقام فيه الجمعة . ثم خرب ، في آخر العهد المملوكي ، وأخذت آلاته إلى عمارة تكية السلطان سليمان ، سنة ٩٦٥ هـ . أنظر : النعيمي ، الدارس ٤٣٨/٢ — ٤٣٩ .
وذكر ابن عساكر مسجدين في النيرب . سمّى الأول : مسجد في النيرب الأسفل . والثاني : مسجد النيرب من مساجد القرى (تاريخ دمشق ، المجلدة الثانية ص ٨٩ — ٩٠) .

جامع المزّة : المزّة قرية قرب دمشق معروفة . وكانت تسمى مزة كلب لنزول قبائل كلب بها . أنظر : المنجد ، منازل القبائل العربية حول دمشق . في مجلة المجمع العلمي العربي ، المجلد الثلاثون . الجزء الأول ؛ وياقوت ، معجم البلدان ؛ وصفي زكريا ، الريف السوري ١٥٦/٢ ؛ محمد كرد علي ، غوطة دمشق .
ليس عندنا نصوص عن جامع للمزّة الذي عناه الوهراني . وتوجد نصوص عن جامع المزّة الذي عمره الصفيّ بن شكر سنة ٦٢٢ هـ . (الدارس ، ٤٣٢/٢) وجامع المرجاني بضواحي المزّة (الدارس ٤٤٢/٢) .

الغوطـة : غوطة دمشق . معروفة . أنظر كتاب غوطة دمشق .

البقاع : هي البقاع العزيزي . في لبنان اليوم . معروفة .

حوران : معروفة ، جنوب دمشق .

مشهد بَرْزَة : بَرْزة قرية من غوطـة دمشق . معروفة . أنظر : غوطة دمشق . ومشهد برزة هو الذي زعموا أنه مقـام ابراهيم الخليل . أنظر : العدوي ، الزيارات بدمشق ، ص ١٦ (تحقيقنا) .

مسجـد أرزة : أرْزة قرية كانت في محلة الشهداء ، على طريق الصـالحية . دثرت منذ زمن بعيد . لم يبق من آثارها إلاّ قبور الشهداء . أنظر : العدوي ، الزيارات ص ١٥ ؛ ودهمان مقدمة القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية ، ص ١٨ ؛ وعلق في ص ٢٤٧ بقوله : « ومن كلام العوام : مابين برزة وأرزة أربعون ألف نبي » وفي قصيدة مصطفى البكري التوسلية ، ورد :

يارب بالذات العليّة   وبسرّ أسرار الهوّية

. . . .

بالشـام ثم ببرزةٍ   مع أرزة والصالحيّة

مقـام ابراهيم = مشهد برزة .

مغـارة الدم : بجبل قاسيون . أنظر العدوي ، الزيارات ، ص ٥ ؛ والربعي ، فضائل دمشق (تحقيقنا) ص ٦٢ — ٦٧ .

مسجد الكهف : هو كهف جبريل . بجبل قاسيون . أنظر الزيارات ص ٦ .

قبر شيث : في قرية نبي شيث تبعد نحو (١٥) كم شرقي زحلة (البقاع) .

قبر نوح : في قرية كرك نوح شرقي زحلة وبجوارها (البقاع) .

قبر اليـاس : في قرية قب لياس جنوب غربي شتورة (البقاع) .

جيرون : أنظر عنها ابن طولون ، قرّة العيون (تحقيقنا) ، وكتابنا خطط دمشق .

* * *